تأكيد المدح بما يشبه الذم
إعادة لقراءة نص تراثي: (الأحوص* ومطر)

جهـــاد شـــادة
جامعـــة بسكـــرة

الملخـــص:

تهدف هذه الدراسة إلى إعادة قراءة نص تراثي وفق المعايير النصية التي وضعها الباحث السعودي عبد الله محمد الغذامي، والتي كانت محل بحث اشتغل عليه في جملة من مؤلفاته محاولا تأكيد وجود هذه الفكرة في التراث العربي خاصة عند عبد القاهر الجرجاني.

كما نحاول من خلال هذه القراءة تبيين بعض الأخطاء المنهجية التي وقع فيها الباحث، من خلال فحص مدى ملائمة ما قرره لما طبقه.

المداخلـــة:

طالما ذهب بعض النقاد المحدثين إلى استقراء الموروث النقدي العربي، ومحاولة تنقيتـــه وتحصيله، واستخراج العناصر العرضية منه وإبقاء العناصر الجوهرية –عن طريـــــق أنظمة معرفية حديثة– ومن ثم التنظيروإعادة قراءة الموروث قراءة جديدة.

ومن بين هؤلاء نجد الناقد عبد الله محمد الغذامي، الذي أفاد الساحة النقدية، بكتاباته المتعددة تنظيرا وقراءة، ويعد كتابه "المشاكلة والاختلاف" من بين المؤلفات التي حاول فيها البحث عن جذور النصية في التراث

العربي خاصة عند الجرجاني. والذي يبهـــر القارئ البعد النظري للكتاب واكتمال جوانبه سواء من ناحية الإحاطة بالموروث، أم بالمستجدات الحديثة، ما ينم عن روية، وطول فكر، وإعادة نظر.

لكن هذه الوتيرة المتروية سرعان ما تصير إلي تسرع في الجانب التطبيقي من الكتاب، وعليه فالدراسة تتوق إلى إعادة قراءة أحد المتون التي أوردها، على اعتبار أن النص الذي يسمح لنفسه بالانفتاح على مقاصد متعددة لنص قمين بالدراسة، و المتن الذي سنتناوله مدرج في الفصل الثالث من كتاب "المشاكلة والاختـــــلاف" المعنون بـــ: "المغسول والمعمى" وهو نص كما يقول الغذامي اختلافي يروي أحداثه أبو الفرج الأصفهاني يقول: «قدم الأحوص البصرة، فخطب إلى رجل من تميم ابنته [...] فزوجه إيّاها، وشرطت عليه أن لا يمانعها من أحد من أهلها. فخرج بها إلى المدينة، وكانت أختها عند رجل من بني تميم قريبا مـــن طريقهم فقالت له: اعدل بي إلى أختي ففعل، فذبحت لهم، وأكرمتهم وكانت من أحسن الناس، وكان زوجها في إبله، فقالت زوجة الأحوص له: أقم حتى يأتي، فلما أمسوا راح مع إبله، ورعائه وراحـــت غنمه فراح من ذلك أمر كثير ،وكان يسمى مطرا. **فلما رآه الأحوص ازدراه واقتحمته عينه**، وكان قبيحا دميما فقالت له زوجته: قم إلى سلفك، وسلم عليه، فقال وأشار إلى أخت زوجته بأصبعه:

سلام الله يا مطر عليـــها وليس عليك يا مطر السلام
فإن يكن النكاح أحل شئ فان نكاحها مطرا حـــــــرام
ولا غفر الإله لمنكحيها ذنوبهم، وإن صلوا وصاموا
فطلقها فلست لها بكفء وإلا عض مفرقك الحسام

وأشار إلي مطر بأصبعه، فوثب مطر وبنوه وكاد الأمر يتفاقم حتى حجز بينهم»[1]

المعايير النصية عند الغذامي:

نتناول في هذا العنصر أهم المعايير النّصية عند الغذامي، وكيفية تطبيقها على المتن، وهي كالآتي:[2]

1- البنية: وتبدأ من الصوت والكلمة اللذين يؤسسان الدلالة المعجمية، وصولا إلى الجملة (المرتكز في التحليل لأنها وحدة التواصل). والبنية الدلالية للجملة هي ناتج السياق، لاحتمالها وجوها غير وجهها الحقيقي

2- علينا الأخذ بالنص الكامل والوحدة الشاعرية.

3- العالم لم يعد النموذج المحاكى، لأن النص يشرح ما قبله، ويفكك كل علاقات العرف ليقيم اصطلاحا، وعرفا جديدا.

4- المعنى للمفردة، أما الدلالة للبينة والتركيب.

5- المعنى خاضع لنية المؤلف، أما الدلالة فهي ما يفهم القارئ من النص.

6- المعنى جاهز،الدلالة استنباط.

7- المعنى خاضع لمعيار الصحة والخطأ، أما الدلالة فلا وجود لسلطة خارجة عنها لأنّ قيمتها في ذاتها؟

8- الشكل X المعنى= خطاب غير أدبي، وهو نص المشاكلة.

9- الشكل X المعنى X الدلالة = نص أدبي شاعري جمالي.

10- كل هذا انتقال بالنص من حالة المعني إلى حالة الأثر.

تعقيب: عند تحليل الغذامي للنص الذي ذكرناه آنفا نجده قد اتبع الخطوات الآتية:[3]

1- تناول الغذامي في النص بنية واحدة فقط. وهي جملة "السلام عليكم"، ثم عالج كيفية انزياح دلالتها من السلام إلى اللاسلام، كما أنه نقض هذا العنصر بتركيزه على بنية غير تواصلية "عليها" التي أحدثت حسبما ينقل إهانة للمخاطب.

2- لم يأخذ بالنص الكامل، ولا الوحدة الشاعرية ، حيث تناول البيت الأول فقط.

3- وقع في النموذج المحاكي وهو "إلقاء التحية وردها"، إذ وحسب الغذامي فككت العلاقة المتعارف عليها لتدخل في عرف جديد، وتنزاح وتنقض دلالة السلام إلى اللاّسلام.

4- أما بقية العناصر فملخصة في الشكل «الشكل XالمعنىX الدلالة» والملاحظ أنه لم يلتزم بها، بل وقع في المشاكلة (الشكل X المعنى).

5- نتساءل أين النص؟ وأين الأثر؟ النص لم يعالج بكامله رغم احتجاج الغذامي بمقولات مثل البنية، والتركيب والدلالة، ثم نراه لا يطبقها، بل يعتمد على مسار سردي متخيل، فيفترض في التحليل ثنائية "حضور، غياب" (التي لم يوردها في التنظير) أي أن الشاعر استحضر الغائب وهو (عليها) ليجعله مسلما عليه ، وذلك لإحداث إهانة جارحة للمخاطب، ثم الشطر الثاني يتضمن جملة السلام في حالة الرد (عليكم السلام) كأنّ مطرا قد حـــــاول تصحيح الموقف، ومداراة الحال، فرد عليه الشاعر رادا وهمه بجملة معكوسة، حيث أكد نفيه لقبـــول السلام منه!

عود على بدء:

الظاهر أن الغذامي لم يركز على العلاقات النحوية داخل النص، والتي شدد عليها الجرجاني، وبهـــذا وقع في المشاكلة بدل الاختلاف. فالنص كما يقول فريد الزاهي «سيرورة ذات مظهرين، لغوي محايث، وعاطفي، فالبنية الغوية تقوم بتوجيه الاستجابة المنتظرة من القارئ، وتبعدها عن كل ظرفية، أما البنية العاطفية فإنها تحقق ما كان كامنا في النص كبنية قبلية»[4]

وعليه فإننا من خلال قراءة النص تكون ردود أفعالنا واستجاباتنا الأولية نحوية استدلالية خالصة، تركز على فكرة التأمّل والتعمّل، وتوخي

معاني النحو كما أشار إلى ذلك الجرجاني، وأثبته و قرّره الغذامي[5] ثم يأتي الانتقال إلي البنية الدلالية ذات الاختلاف المرتهنة بملابسات السياق وهذا ما وجدناه في نص الأحوص، إيلاف بين مختلفين، إذ جاء بالمدح في صورة هجاء أو "تأكيد المدح بما يشبه الذم"[6] وعليه سنحاول مطابقة النص لما نظّر له الغذامي لكن بطريقة تربط الأجزاء المتناثرة، وتنسقها لتعطي لنا أبياتا هي من أروع ما قيل في المدح:

1- **الكلمـــة:**

كما هو معلوم، فإنّ تكرار كلمة ما في نص، يعد خيطا من الخيوط التي يمكن من

خلالها القبض على دلالة النص، ومن الكلمات التي تكرر ورودها كلمة "مطر"، وهي كلمة تحمل دلالات عدة من بينها: الرجولة، الخصوبة، العقاب ... لكن الشاعر يزيح هذه الدلالة الأخيرة ويقلبها سلاما، من خلال لعبة العلاقات التجاورية بين الكلمات وذلك ما سنلمسه في العنصر الآتي:

2-**التركيب و الدلالة:**

نبدأ بالشطر الأوّل من البيت الأول الذي يقول فيه الشاعر:

سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام

حيث نجد أنفسنا أمام مفهومين:

الأول: سلامُ الله رفعا على معنى التحية، وبذا تكون الجملة الأصلية:

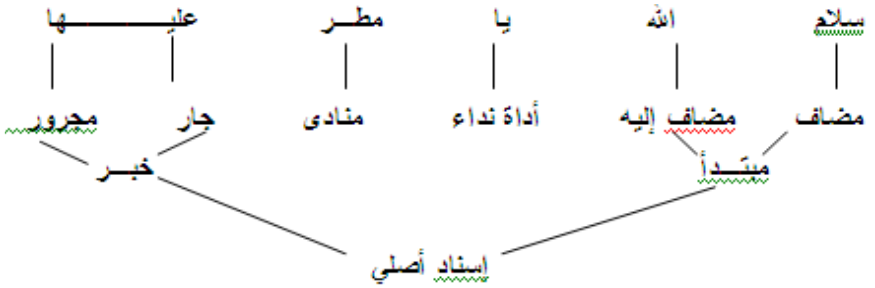

وهذا ما ذهب إليه الغذامي.

الثاني: سلامَ الله نصبا على التعجب والمدح، إذ يكون هنا إضمار، وهذا ما أورده سيبويه في باب من المصادر ما ينتصب بإضمار الفعل المتروك إظهاره يقول: «وكأنه حيث قال معاذَ الله قال عياذاً بالله وعياذاً انتصب على أعوذ بالله عياذا ولكنهم لم يظهروا الفعل هاهنا كما لم يظهر في الذي قبله»[7] وهكذا دواليك مع سبحانَ الله، وسلامَ الله وبذا تكون الجملة والإسناد الأصلي:

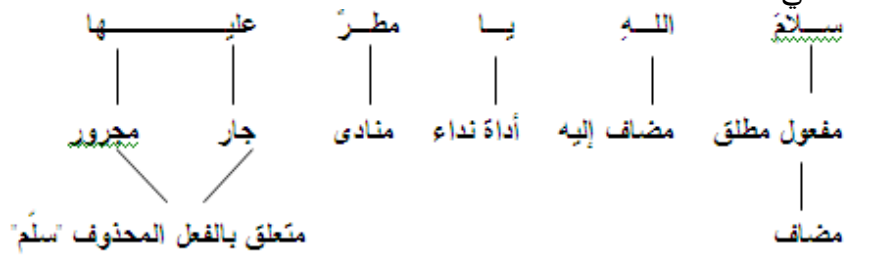

وكأنه قال: "سلّم سلاما من الله يا مطر عليها"، وهنا تنزاح دلالة العقاب التي أشرنا إليها سابقا وتتحول إلى سلام، ولكي تكتمل الدلالة لا بد من أن نعرج على الشطر الثاني:

وليس عليك يا مطر السلام

نحن هنا كذلك أمام مفهومين؛ السلام في حالة الرد كما أورده وأثبته الغذامي، أو السلام تحية الموتى «إذ يكره أن يقول {المسلم} في الابتداء عليك السلام وجاء في الحديث*

النّهي عنـــه وأنّه تحية الموتى ومعناه أنّه عادة الشعراء المؤبنين للموتى في أشعارها ومراثيها كقوله:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما»[8]

وعليه يكون الشطر الثاني بنية يفكك فيها العرف(التحية، رد تحية) لتبنى دلالة جديدة من خلال نفي الحال (الموت)بليس، وانزياح الخبر دعاءً بطول الأجل.

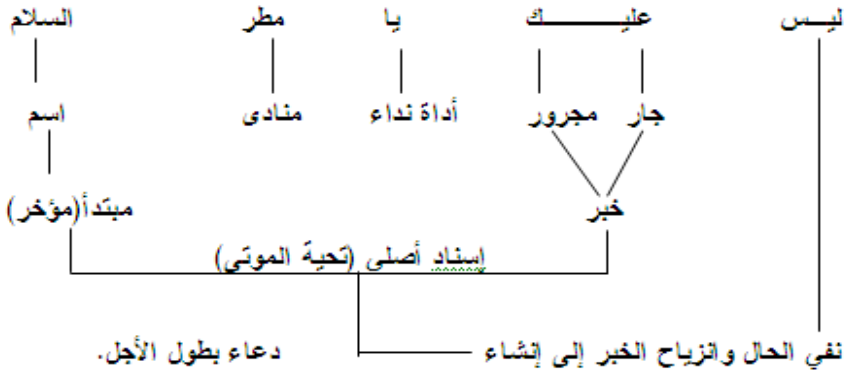

3- **النـــص:**

يتوقف الغذامي عند هذا الحد، وبالطبع فإنّ هذا ليس كل شيء لأنّه ينبغي الإشارة إلى باقـــي النص.

فالشطر الأول من البيت الثاني نراه قد صدّر بشرط وافتراض يقول: "فإن يكن النكـــاح أحلّ شيء"، ثم يأتي جواب الشرط المفارق الحامل للاختلاف: "فإنّ نكاحها مطرا حرام"، هـــنا "مطرا" إما أن يكون منصوبا على النداء والتقدير: "فإنّ نكاحها يامطرا حرام" وإما أن يكون منصوبا على التمييز بمبتدأ مصدر"نكاح" عمل عمل فعله، وهو المرجوح في ظنّنا. وقد جاءت كلمة" مطر" نكرة لتدلّ على العموم، كذلك لنميز من خلالها

بين المفترض والحقيقي، فإنّ مطرا هنا مدلول عام، أي يدل على أي رجل وليس مطر زوج المرأة هو المقصود، وعليه فموضوع الأبيات رجل مفترض من قبل الشاعر.

أما البيت الثالث فصدّر بحرف عطف "الواو" أفادت الوصل بالموضوع المفترض (تزويج المرأة لغير مطر) إذ يدعو عليهم قائلا: "لا غفر الإله لمنكحا" -الذين انكحوها مطرا آخر- "ذنوبهم وإن صلوا وصاموا".

البيت الرابع صدر بالفاء وهي فاء استنتاجية متعلقة بالموضوع المفترض، إذ الكلام موجه إلى هذا الزوج المفترض" فطلقها فلست لها بكفء" ثم يأتي الشطر الثاني مصدرا بالواو وكثيرا مـــا تكلم الجرجاني على الفصل والوصل[9] وقد جاءت هنا للفصل أي الفصل بين الشخصيتيـــن الزوج المفترض ومطر، وعليه فالخطاب في الشطر الثاني" وإلا عض مفرقك الحسام" موجه إلى مطر أي إن لم يطلقها هذا الرجل فما عليك إلا بالقوة لاسترجاعها، والقرينة السياقية تسند مقولتـــــنا وهي إشارة الأحوص بيده إلى مطر.

ونختم أن الحكاية إذن تروي إعجاب الشاعر بأخت زوجته التي أكرمتهم وأحسنت ضيافتهم، فأراد الشاعر أن يمدح وأن يوصي زوجها بها خيرا، وأن يحفظها ويحافظ عليـــها فجاء بنص اختلافي (مدح في صورة هجاء/ تأكيد المدح بما يشبه الذم) جعل القارئ الأول "مطر" يقع في المشاكلة وذلك لمعطيات كانت فيه" الدمامة والقبح"، وكذلك القارئ الثاني الأصفهاني الذي لا تتطابق روايته وتحليل الأبيات، إذ التحليل يكشف زيادة الراوي "**فلما رآه الاحوص ازدراه واقتحمته عينه**" وقد وضعنا تحتها سطرا، يعرف هذا النوع من الزيادات في علم الحديث بـــ: "المدرج"[10] وربما كانت هذه الزيادة سببا فيما نظنه أوقع بالغذامي، فقرأ النّص على غير حقيقته.

الهوامـــش:

*- الأحوص: اسمه عبد الله، لقب الأحوص لحوص في عبنيه (ضيق في مؤخر العينين أو إحداهما وهو ابن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، جعله محمد بن سلام الجمحي هو وبن قيس الرقيات، ونصيب، وجميل بن معمر طبقة سادسة من شعراء الإسلام، ينظر: أبو فرج الإصفهاني، كتاب الأغاني، تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج، دار الثقافة، بيروت، ط1983م، المجلد الرابع، ص 236-238.

[1]- أبو فرج الإصفهاني، كتاب الأغاني، المجلّد الخامس عشر، ص234 ،235.

[2]- ينظر، عبد الله محمد الغذامي: المشاكلة والاختلاف، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 1994 ص27، 43، 44.

[3]- ينظر، عبد الله محمد الغذامي: المشاكلة والاختلاف، ص91، 92.

[4]- الزاهي فريد، النص والجسد والتأويل، إفريقيا الشرق، المغرب 2003م، ص19.

[5]- ينظر عبد الله الغذامي: المشاكلة والاختلاف ص19.

[6]- تأكيد المدح بما يشبه الذم صربان أفضلهما أن يستثني من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها ... والثاني أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرئ له كقول النبي صلئ الله عليه وسلم :"أنا أفصح العرب بيد أني من قريش". ينظر، القزويني، الإيضح في علوم البلاغة، قدم له وبوبه وشرح له: علي بو ملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الأخيرة 2000م، ص300.

[7]- سيبويه عثمان بن قنبر: الكتاب. تعليق: بديع إميل يعقوب، دار الكتب العلمية لبنان، الطبعة الأولى، 1999م المجلد الأول ص386.

*- الحديث هو قوله صلى الله عليه وسلم «لا تقل عليك السلام فان عليك السلام تحية الموتى ولكن قل السلام عليك» تخريج السيوطي عن جابر بن سليم، تحقيق الألباني ناصر الدين، صحيح وضعيف الجامع الصغير، الجزء 27، ص431

[8]- اليحصبي أبو الفضل بن عياض: إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، الجزء07ص20.

[9]- ينظر الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر دار المدني جده الطبعة الثالثة 1992، ص222

[10]- المدرج اسم مفعول من أدرج، تقول أدرجت الشيء في الشيء إذا أدخلته فيه وضمّنته إياه، واصطلاحا: الحديث المدرج ما كانت فيه زيادة ليست فيه. قال ابن كثير في اختصار علوم الحديث: "هو أن تزاد لفظة في متن الحديث من كلام الراوي، فيحسبها من يسمعها مرفوعة في الحديث، فيرويها كذلك، وقد وقع من ذلك كثير في الصحاح والحسان، والمسانيد وغيرها". والإدراج قد يقع في الإسناد كما يقع في المتن، أما وقوعه في المتن فقد يكون في أول الحديث، أو في وسطه (كما في النص الذي حللناه)، أو أن يكون في آخر الحديث. ينظر محمد ضياء الرحمن الأعظمي،

معجم مصطلحات الحديث ولطائف المسانيد، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى 1999م، ص 360، 361، 362.